

المصراع

حول

البحر الأحمر

منذ أقدم العصور

حتى القرن الثامن عشر

د. يوسف فضل حسن

فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ زادت أهمية البحر الأحمر كممر دولي
التنافس بين الدول العظمى. وخلال العقد الأخير كثر الحديث عن «أمن البحر
الأحمر»، ورددت كثير من الدوائر العربية شعار أن «البحر الأحمر عربي». وفي نفس
الوقت تفاقمت حدة التنافس بين الدول العظمى على كسب ود البلاد المطلة عليه
والسعي للسيطرة عليها. وأخذ هذا التنافس أو الصراع مظاهر مختلفة، منها الثقافي
والأيدولوجي والاقتصادي والعسكري. وحقيقة الأمر أن أهمية البحر الأحمر
والصراع المحتدم عليه ليست جديدة بل ترجع إلى عشرات القرون.

الوصول إلى البحر الأحمر حين استظله قدماء المصريين لبلوغ بلاد البونت (أو
أخترقه الفراعنة جنوباً حتى بلغوا بلاد الهند بقصد التجارة في العصور والتوابل وغيرها
من منتجات الشرق في الألف سنة الأولى قبل الميلاد. وأصبحت الاستفادة من
البحر الأحمر في نقل شتى أنواع التجارة من اليمن، والهند وشرقي أفريقيا، والتي نشق
طريقها حتى حوض البحر الأبيض المتوسط ثم أوروبا الغربية، السمة الغالبة على
مناشطه.

ومع أن مصر قد نجحت في بسط نفوذها السياسي والتجاري على أجزاء كبيرة من
سواحل البحر الأحمر لفترات طويلة، إلا أن هذا المعبر الهام كان مسرحاً لصراعات
حادة بين الممالك المطلة عليه من جهة، وبين القوى الأوربية الوالدة كالإيطاليا والرومان
الذين سوا لبسط نفوذهم عليه والتحكم في التجارة التي تنقل عبره منذ عهود
مبكرة. ومنذ قيام الخلافة الإسلامية ظل المسلمون يسيطرون على هذا الطريق البحري
الهام سيطرة تامة امتدت حتى المحيط الهندي، ويحتكرون ما يجعل عليه من تجارة
الشرق التي تأخذ طريقها إلى أوروبا محققين من ذلك أرباحاً كبيرة. ومنذ انتهاء الحروب
الصليبية أخذت أوروبا تسعى لكسر هذا الاحتكار الإسلامي، وإضعاف الدول
الإسلامية، وقد نجا لها ذلك على يد البرتغاليين الذين دخلوا في صراع طويل مع
الممالك حكام مصر، ثم مع الدولة العثمانية التي آلت إليها السيادة على الممتلكات
المملوكية.

عرف هذا البحر بأسماء متعددة كالبحر الفرعوني، والبحر الحبشي، وبحر القلزم وأخيراً البحر الأحمر. والإسمان الأولان يشيران إلى أسماء أمم غلبت أجزاء منه أو كله، ويشير الإسم الثالث إلى ميناء، بينما تصف كلمة الأحمر لون مائه.

وقد اشتهر البحر الأحمر منذ زمن بعيد بصعوبة الملاحة لكثرة الصخور والشعب المرجانية التي تعترض مجراه وما يهب عليه من رياح وأعاصير، وراجت بعض الأساطير عن وجود صخور من المغناطيس تسبب في تحطيم السفن المثبتة بمسامير من الحديد. وقد عرفت هذه الأسطورة في العالم القديم. ولعل أول من أشار إليها هو الكاتب الهندي مهوجا. وأبان بروكويوس خطئ هذه الأسطورة ذاكراً أن سفن البطالمة والرومان المثبتة بالحديد كانت تمخر عياب البحر الأحمر دون أن يصيبها أي مكروه. وظلت هذه الأسطورة تثير الرعب في نفوس الملاحين حتى عهود متأخرة، ولذا كانت السفن تتجنب الإبحار فيه ليلاً. وعزا القزويني ذلك إلى «خوف الملاحين من جبال المغناطيس». وحتى يتجنبوا هذا الخطر فاتهم بحيطون السفن عند صنعها بتروع نحاس من الجبال المثبتة. ويصفها الإدريسي بقوله «ومراكب هذا البحر كلها مؤلفة بالدرر ومحروزة بجبال البلف مجلفطة بدقيق اللبان ودهن كلاب البحر» ويصف البحر بقوله «والسافرين في هذا البحر يأوون منه في كل ليلة إلى مواضع يسكنون بها ويلجأون إليها خوفاً من معاطيه، ويترلون بها ليلاً ويقفلون عنها نهراً. وهو بحر مظلم، كربه الروائح، وحش الجزائر لا خير في ظاهره ولا في باطنه وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ النفيس. وفي جباله الجواهر وفي مدنه أصناف الطب وفي سواحله محلات الملوك ومدنها».

ويؤكد وصف الإدريسي هذا حقيقة هامة وهي أن الطبيعة القاحلة لمعظم سواحل البحر الأحمر لم تساعد على إنتاج صادرات ذات قيمة تجارية عدا بلاد اليمن كما أن عائد ثروتها الطبيعية كان قليلاً في ذلك الوقت، فإذا ما بعدنا من الساحل نجد أن منطقة الظهر، وبخاصة في الساحل الإفريقي، كانت تعد الموانئ القليلة، التي نشأت في ساحل البحر الأحمر بشتى المنتجات الزراعية والمعدنية والتي غالباً ما تستغل في التجارة المحلية، إلا أن ثراء المرافئ الرئيسية مثل عدن وجدة وعيذاب والقلزم يرجع إلى اعتمادها على التجارة الهندية. ولعل هذا العامل الجغرافي يفسر قلة المالك التي ارتبط تاريخها بالبحر الأحمر باستثناء مصر واليمن اللتين لعبتا دوراً هاماً في

تجارة التوابل والعطور. وفي هذا السياق يمكن ذكر الحبشة التي ارتبط تاريخها إلى حد ما بالبحر الأحمر.

وكان موقع مصر الجغرافي الممتاز على سواحل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط. وما نشأ على أرضها من حكومات قوية سبباً في اهتمامها بالبحر الأحمر وارتباط تاريخها التجاري والحرفي بتاريخه فترات طويلة. ففي عهد الملك رمسيس الثاني استولى الأسطول المصري على أجزاء كبيرة من سواحل البحر الأحمر واشتبك مع السفن الهندية التي كانت تتحرس بالسواحل المصرية. وفي عهد الملكة حتشبسوت بلغت الأساطيل التجارية بلاد البونت. ومنذ ذلك التاريخ صارت السفن المصرية تخمر عباب البحر الأحمر تحمل شتى أنواع المنتجات الإفريقية كالعطور والعاج والأبنوس. ولتسهيل مهمة السفن التجارية شقت قناة في وادي الطليات لتربط بين النيل والبحر الأحمر وقد أعيد حفرها مرات. وكانت السفن الحربية تحرس الأساطيل التجارية في رحلاتها.

وبعد الغزو الإفرنجي لمصر سارت دولة البطلة على نهج سياسة القراعة في البحر الأحمر، فاهتمت برعاية الأساطيل التجارية التي كانت تمثل مورداً اقتصادياً هاماً. وكانت السفن المصرية تبحر حتى عدن وربما جاوزتها إلى الهند. ولم تفت جهود البطلة على النشاط التجاري وتوسيع ممتلكات الدولة، بل اهتموا بجمع معلومات دقيقة عن سواحل البحر الأحمر وأجزاء من المحيط الهندي. وكان ما جمعه من حقائق عن السواحل وسكانها وموارد ثروتها يمثل ثروة علمية عظيمة ساعدتهم على السيطرة على البحر الأحمر وأفادتهم.

وتم إنشاء موانئ جديدة مثل برنيس، وليوكوس ليمون وأديوليس في الساحل الغربي للبحر الأحمر، جنوب مصوع وأرسينوي عند بوغاز باب المندب. وقد ساعدت كل هذه المدن في تنشيط التجارة. وربما كان اهتمام البطلة بالكشف الجغرافي امتداداً طبيعياً لعمليات الاستكشاف التي ابتدتها القراعة. ومن أشهر هذه الرحلات البعثة التي أرسلها تاحو أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين لاكتشاف السواحل الإفريقية. فأبحرت البعثة من مدينة القلزم وعادت عن طريق جبل طارق سنة ٦١٦ ق.م.

ولم تحقق هذه الزعامة البحرية دون صراع شديد مع دولة سبأ اليمنية (٧٥٠ ق.م / ١١٥ ق.م) التي كانت تسيطر على اليمن وتتحكم في مدخل البحر الأحمر الجنوبي، كما أن غزارة الأمطار وخصوبة الأرض جعلها مصدراً هاماً للعطور والبخور كما كانت على صلات تجارية مع شرق أفريقيا والهند. وأتاح هذا الموقع المانع لليمنين السيطرة على جنوب البحر الأحمر والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية والساحل الإفريقي المواجه لبلادهم. ولذلك تسنى لهم احتكار تجارة التوابل والعطور وغيرها من السلع القديمة التي يحنون منها أرباباً كثيرة. وتجنباً لخطر البحر الأحمر كان التجار اليمنيون ينقلون هذه السلع على قوافل برية تسير محاذية لساحل البحر الشرقي عن طريق مكة إلى الشام ومصر. وكانوا على صلات حميمة مع دولتي الأنباط وتدمر اللتين تسيطران على أجزاء من شمال الجزيرة العربية والشام. ولما كانت القوافل اليمنية تتمتع بحمايةحكام تلك الدول صاروا شركاء لهم في الثراء الذي تحققه تلك التجارة. فلما آل الأمر إلى البطالة سعى لقم الاحتكار اليمني للتجارة الشرقية ونجحوا في كسر شوكتهم لسيطرتهم على البحر. ومما ساعدهم على ذلك الضمحلل مملكة سبأ واتباعها في سنة ١١٥ ق.م، إلا أن اليمن ظلت تحت زعامة الدولة الحميرية (١١٥ ق.م. — ٣٠٠ م) تمثل محوراً هاماً في التجارة الشرقية. وقد نبذت هذه السيطرة بدخول الرومان حلبة السباق.

وفي سنة ٣٠ ق.م. استولت الدولة الرومانية على دولة البطالة، وثبتت سياساتها الرامية للسيطرة على تجارة البحر الأحمر. وكان هدف الإمبراطور أغسطس أن تنال روما نصيبها من الثراء الذي تحققه التجارة الشرقية، فقرر كسر الاحتكار اليمني لتلك التجارة وتحويل مسارها للموانئ المصرية، واهتم أغسطس بفرض «السلام الروماني» على البحر الأحمر وتطهيره من القراصنة الذين زاد خطرهم بتدهور دولة البطالة. كما قرر إحكام قبضته على الدول الواقعة على البحر الأحمر، وبخاصة ممالك حمير والأنباط والحبشة وتقلب أظافرها الواحدة تلو الأخرى، واتباع الرومان طرقاً مختلفة لتحقيق هذا الهدف، وكان إرسال حملات عسكرية واحداً منها.

وبدأ أغسطس بدولة حمير اليمنية، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة جائلوس والي مصر لغزو بلاد اليمن ولإزهاق باقي العرب والأنباط. وأقلعت الحملة من مصر سنة ٢٥ ق.م. متجهة نحو الساحل الشرقي، فتأهتته نحو أسبوعين إلا أن صعوبة الملاحة

كبدتها كثيراً من الحصار في السفن والأرواح، ثم تابعت الحملة مسيرتها عبر الطرق الصحراوية حتى بلغت نجران. ثم سارت إلى ماريابا (هأرب) وضربت حوفاً حصاراً، ولكن الجيش الروماني لم يصمد طويلاً، بسبب الحصار في الجند والعتاد وقلة المؤن وما تعرض له من مقاومة شديدة. وعادت الحملة إلى مصر دون أن تحقق نصراً عسكرياً، إلا أن إرسال ذلك الجيش الأوربي كان بمثابة مظاهرة استعراضية لقوة روما العسكرية في جزء لم تبلغه أوروبا من قبل، وحققَت الحملة فوائد علمية وسياسية واقتصادية. فقد عرف الرومان ذلك الإقليم وكتبوا عنه، كما أنهم عقدوا بعض الاتفاقيات مع أمراء تلك المناطق، ومهدت الحملة لزيادة النفوذ الروماني وكسر الاحتكار العربي للتجارة الشرقية.

ومما ساعد أيضاً في تحويل التجارة الشرقية للموانئ المصرية التي قام الرومان بتحصينها وربطها بطرق آمنة الاستفادة من الرياح الموسمية.

عند استيلاء الأمر للرومان في منطقة البحر الأحمر. ومن استقرار الواقع في ذلك الحين تصل إلى أن سياسة الرومان نحو بلاد الحبشة وميناء عدول (المفخذ الرئيسي لدولة أكسوم الناشئة) كان يسودها شيء من التفاهم والتعاون الاقتصادي. إلا أن الرومان اتبعوا مع بلاد النوبة سياسة مغايرة لتلك التي اتبعت تجاه بلاد الحبشة. إذ أن الرومان قاموا بإجراءات تأديبية ضد بلاد النوبة لتأمين سير التجارة وخاصة على المناطق الساحلية.

ونتيجة لكل هذه الإنجازات أصبح الرومان يسيطرون على البحر الأحمر ويتمتعون بدخل اقتصادي كبير، إلا أن السيادة الرومانية لم تدم طويلاً. فخلال القرنين الثالث والرابع بدأ الضعف يدب في كيان الإمبراطورية من الداخل. وانتهى بانقسامها إلى شطرين: بيزنطة في الشرق، وروما في الغرب. وقد ورثت بيزنطة نفوذ الإمبراطورية الرومانية في البحر الأحمر، وفي الخارج ظهرت على مسرح الأحداث قوتان جديدتان: الأولى الإمبراطورية الساسانية، والثانية مملكة أكسوم المسيحية. ففي سنة ٢٥٥ م. نشأت الإمبراطورية الساسانية في أعقاب الملكة البارثية واعتبرت نفسها الوريث الشرعي لمملكة الأخمينيين التي هزمها الإسكندر المقدوني منذ ستة قرون، وفي عهدها سعت لإحياء حضارة الفرس ولقوميتهم التي ذبلت، فركزت نفوذها في منطقة ما بين النهرين، وأجبت الصراع التقليدي بين الفرس والرومان في

الأقاليم الواقعة بين الأمبراطوريتين ونادت بطرد الروم من الشرق كله. وبما عمق هذا الصراع أن القرس يدينون بالزرادشتية بينما يعتنق الرومان المسيحية.

وعمل القرس للفكاك من هيمنة الرومان على التجارة الشرقية في المحيط الهندي، فأنشأوا الموانئ وتعاونوا مع عرب جنوب شبه الجزيرة العربية في نقل السلع بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر. ووجد القرس في عرب اليمن، الذين اعتنقوا اليهودية، خير معين لهم في صراعهم ضد الدولة البيزنطية وحليفها دولة اكسوم.

أما الدولة الثانية فهي اكسوم الحبشية، التي كان البيزنطيون يراقبون نفوذها المتزايد بشيء من الحذر وبخاصة بعد أن غزت بلاد أصدقائهم ملوك مروي، وبعد أن بدأت تساهم في تجارة البحر الأحمر وأخذت تطمع في السيطرة على اليمن لزيادة نصيبها من تلك التجارة. ومع ذلك كله فإن البيزنطيين كانوا يعتبرونها خير حليف لهم في ذلك الركن الثاني. وبخاصة بعد أن انتشرت المسيحية في ربوعها. ومن ثم توطدت الصلات بين البلدين وصارت اكسوم تنوب عن بيزنطة في نقل تجارتها وتدافع عن سياستها في تلك المنطقة.



وفي نحو سنة ٣٠٠ م. تمكن الحميريون من توحيد دويلات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية تحت زعامة دولة حمير الثانية، التي استمرت مزدهرة، إلا من غزو حبشي قصير، حتى سنة ٥٢٥ م. ولم يقف الصراع حول اليمن على المجال الاقتصادي، بل وجد عمقا عقائديا: فبعد أن انتشرت المسيحية واليهودية بين الوطنيين دخل أتباعها في صراع حاد استغله كل من القرس والرومان لصالحهما خلال القرنين الخامس والسادس. ولما اعتنق ذو نواس آخر ملوك حمير، اليهودية وسعى للفضاء على المسيحية في نجران، استنجد المسيحيون بالامبراطور جستنيان الأول، حامي الكنيسة. فأشارت بيزنطة على نجاشي الحبشة بغزو بلاد اليمن ففعل ذلك سنة ٥٢٥ م. ولا شك أن دوافع هذا الغزو لم تكن دينية بحتة، وإنما كانت تخفي وراءها مطامع بيزنطة لسط نفوذها السياسي على القبائل العربية تحت ستر التدخل الحبشي. وأن تحارب بهم النفوذ الفارسي المتزايد. والدليل على ذلك أن الأحباش لم يغادروا البلاد بعد تجمدة المسيحيين بها بل ظلوا يحشون على صدرها خمسين عاما، ثلاث «الجهة الوطنية» ممثلة في اليهود والوثنيين خلالها مرات. ويرجع بعض المؤرخين أن

الأحباش كانوا يهدفون إلى إنشاء مركز ديني في الجنوب العربي يستطيع منافسة مكة المكرمة ويحذب منها بعض الحجاج الذين يهرون للكعبة. وفي هذا الإطار يمكننا فهم بعض دوافع أزمة لغزو الكعبة سنة ٥٧٠م.

واستجذبت الجبهة الوطنية بقيادة سيف بن ذي يزن بالعامل الفارسي، كسرى أنوشروان، فأمرع الفرس بإرسال جيش سنة ٥٧٥م. وطرردوا الأحباش. ولكن فرحة عرب الجنوب لم تغل، إذ ضم السيد الجديد بلادهم إلى الإمبراطورية الفارسية. وبذلك انتهت دولة حمير وتحول البحر الأحمر مرة أخرى إلى ميدان صراع بين قوتين عالميتين: فارس الزرادشتية في الشرق وبيزنطة المسيحية (بالتعاون مع الحبشة) في الغرب. وظل الفرس يحكمون اليمن حتى سنة ٦٢٨م. الموافقة للسنة السادسة من الهجرة النبوية حيث أعلن يادان الحاكم الفارسي إسلامه ودخل أهل اليمن الإسلام أفواجا. وأسدل الستار على حقبة طويلة من صراع أعقد شكلاً اقتصادياً بين ممالك البحر الأحمر، ولكنه سرعان ما جذبه القوى العالمية، فلوته بأنماط اقتصادية ودينية وسياسية. معتمدة على أعوان محليين يديرون لها معاركها. وما أشبه الليلة بالبارحة.



وانتهت هذه الحقبة بظهور الإسلام الذي وضع حداً للتدخل الأجنبي وانتقل مركز الثقل من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها حيث احتل الحجاز مركز الصدارة في المرحلة الأولى. وبعد أن دانت شبه الجزيرة العربية لدولة المدينة المنورة خرجت الجيوش الإسلامية صوب الشرق والشمال، والشمال الغربي عبر الصحاري فانتشرت على فارس ودوغت بيزنطة. فأصبح البحر الأحمر بحيرة عربية بعد أن دانت له كل البلاد الواقعة على سواحله الشرقية ومصر. كما امتد نفوذ المسلمين حتى عم بلاد الحبشة، إلا أن بلاد الحبشة ظلت بعيدة عن السيطرة الإسلامية الكاملة. وبما أن المسلمين الأوائل لم يهتموا بركوب البحر، سبوا على السياسة الحذرة التي اختطها الخليفة عمر بن الخطاب في التعامل مع قائمهم لم يلتفتوا إلى تسخيرهم لمصالحهم. واستغل القراصنة الأحباش هذا الضعف فهاجموا ميناء جدة سنة ٦٤٠م. ورد عليهم المسلمون بتخريب ميناء عدول. وعادوا بعد أن فقدوا ثلاثاً من سفنهم الأربع. وفي سنة ٧٠٢م. أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك باحتلال أريخيل دهلك لوضع حد لهجماتهم. ولما كثر الأحباش هجماتهم على جدة سنة ٧٦٨م. تعقبهم الخليفة أبو جعفر

المنصور وقرقههم.

واقصر دور البحر الأحمر حتى قيام الدولة العباسية على المناشط التجارية وحمل البريد، ونقل الحجيج من الجزء الشمالي إلى الحجاز. فلما قامت الدولة العباسية انتقل مركز الثقل التجاري من البحر الأحمر إلى منطقة الخليج والخلال الخصيب، وبهذا استرد الطريق الشرقي أهميته بعد الاضمحلال الذي أصابه إثر الحروب التي اجتاحت المنطقة بين الفرس والبيزنطيين، وصارت بغداد حاضرة العالم الإسلامي سياسياً وتجارياً. ومن ثم لم يبق لمصر التي تقلصت مكانتها إلى مجرد مقاطعة في الخلافة العباسية، سوى جزء يسير من التجارة الشرقية، وسعى الوالي العباسي أحمد بن طولون، عند محاولته الاستقلال بإدارة مصر لاسترداد جزء من تلك التجارة ولكن دون جدوى. فلما آل أمر مصر للدولة الفاطمية (٩٦٩ - ١١٧١) نجحت في تحقيق تلك الخطة. وكانت التجارة وأحدة من الأسلحة التي اتخذتها تلك الدولة الشيعة لغاية منافستها في بغداد بقصد إضعافهم اقتصادياً. ودخل الفاطميون في صلات تجارية وثيقة مع الشرق والغرب. واستطاعوا بمساعدة أعوانهم في اليمن الاستفادة من خبراته البحرية في تحقيق هذا الهدف. وبإحكام قبضتهم على التجارة الشرقية امتدت سيطرتهم على العديد من موانئ البحر الأحمر بما فيها عيذاب ذات الموقع الجيد. وفي وقت وجيز ازدهرت عيذاب حتى صارت من أحفل الموانئ الإسلامية. وكانت السلع الهندية والصينية تنقل إلى عدن أولاً ثم إلى عيذاب حيث تعمل على ظهور الإبل عبر الصحراء إلى قوص وققط. وكان تجار الهند واليمن وزنبار والحشة يترددون عليها. وكانت السلع الشرقية تستبدل بالحرير والنحاس والقصدير والكمياويات الواردة من مصر وشمال أفريقيا وأوربا أو بالذهب المستخرج من المعادن الواقعة شرق بلاد النوبة. ومنذ استثناء الخطر الصليبي أصبحت عيذاب ميناء الحجيج الوافد من مصر وشمال أفريقيا وبلاد السودان.

وكان الأسطول الفاطمي يحوب البحر الأحمر لحراسة السفن التجارية وتنظيمه من القراصنة إلا أن تلك الإجراءات لم تردع حاكم مكة من تخريب عيذاب ونهبها سنة ١١١٨ م. ورد عليه الوزير قاضل الجمالي بمنع الحجيج ووقف المؤن عن الحجاز وتجهيز جيش لمعاقبته. فإما كان من حاكم مكة إلا أن عجل بالاعتذار ورد كل ما اغتصبه.

وحقق الفاطميون هدفها الأساسي أولاً: تحويل التجارة الهندية من منطقة الخليج العربي إلى البحر الأحمر مما أدى إلى ضعف الكيان الاقتصادي للخلافة العباسية التي سقطت أخيراً على أيدي المغول. وساعدت هذه التغييرات ليستمر البحر الأحمر طريقاً رئيساً للتجارة الشرقية، إلى أن أحكم البرتغاليون قبضتهم على منافذها في أول القرن السادس عشر. لائقاً: ترتب على هذا كله أن صارت التجارة الشرقية مصدر دخل هام للدولة الفاطمية وما خلفها من حكومات على مصر، وكانت عدن وعيذاب ثملان محوريين هامين في هذه التجارة.

وفي العهد الأيوبي الذي وقع على ملوكه عبء مكافحة الخطر الصليبي، صار البحر الأحمر واحداً من جبهات ذلك الصراع. فالغروب الصليبية ليست إلا مظهراً واحداً من مظاهر الصراع الطويل الدائر بين الشرق والغرب، أو بين أوروبا وآسيا. وكانت الغروب الفارسية الرومانية واحدة منها، كما كان الاستعمار الأوربي الحديث آخرها. ويمثل الغزو الصليبي رد الفعل المسيحي للتدين الإسلامي الأسيوي الذي كان في توسع مستمر منذ القرن السابع الميلادي. وكان تزايد نفوذ دولة السلاجقة في آسيا الصغرى وتهديدها للقسطنطينية حاضرة الإمبراطورية البيزنطية، السبب المباشر الذي دفع الصليبيين إلى دخول هذه الحرب دفاعاً عن مصالحهم الدينية وانتقاماً من أعدائهم. وكانت الغروب الصليبية تهدف لاسترداد القدس من المسلمين. ومع أن المظهر الفكري الديني كان غالباً على هذه الغروب فإن الواقع الاقتصادي كان متوقفاً أيضاً.

ونقل الصليبيون المعركة إلى البحر الأحمر عندما قام أرنولد دي شاتيون صاحب الكرك سنة ٥٧٨ / ١١٧٤ بتشييد سفن حربية في البحر الأبيض المتوسط. ثم نقلها براً إلى البحر الأحمر، حيث أكمل تزويدها بالجنود والعتاد الحربي. وكان هدف أرنولد دي شاتيون قطع الحج وغزو الحرمين الشريفين.



ولكن ثراء عيذاب شجع أرنولد دي شاتيون على غزوها فحرق ستة عشر مركباً وأسرى ستين قادمين من اليمن وصادر مؤناً كانت معدة للشحن للحجاز وهاجم قافلة الحجيج بين قوص وعيذاب: «وقاتل الجميع وأحدثوا حوادث لم يسمع الإسلام

عائلها. وعلى صوة هحوة "دوند دي شتيون" عبد يمك أن ربط هحوم
دود ملك سلا دونه سيحبة عبد وتحرب في سنة ١٢٧٢ نفس اعطط
الصبي بني كن يسهف بصوف دونه للميك فتصدياً حرمها بدحل
الاقتصادي الكبير الذي يدره ميناء عذاب.

فلما سمع السلطان صلاح الدين الأيوبي بالحر وكان في الشام وجه ناله محصر
لتعقب الحملة الصليبية ، فأهرك لؤلؤة الخاحب المعتدين ولم يبق بينهم وبين المدينة
وعلى ساكنها أفضل الصلاة والسلام إلا مسافة يوم وكانوا ثلثانة ، فأسرهم وساقهم
إلى القاهرة حيث لاأقوا حطهم.



وذكر القاضي الفاضل أن لإبرمج سهدو ، قطع ضريح حج وحصر العالم
الإسلامي عمرو الحرمي الشريفي وسيصرة على حارة حم وكبره عدد. وذلك
مكبه احتلال سنة في لشه. وقيل عدد من خوب فتحق هي ملك السيطرة
على اتحارة شرفية وقيل لحر الأحمر في وجه أعدائهم

وقع على دولة المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) حي حفت بسطة لا يوية في مصر
ولشاه أعاء حواء وخاصة بعد أن احتج حواف لمعول مدينة بغداد وسفقت
الحلافة بحامه سنة ١٢٥٨ وسفقت الدولة لعدسية صارت مصر لمملوكية اني
أوت لحبة العدسي. مركز لغل سياسي واقتصادي للأمة الإسلامية
والمدفعه عن مفلسب مصر المماليك على حج لأيوبيين في مقدومة نصيبين ونقصه
عن حيوبه وأحدو على عاقبتهم حابة خرمين شريفي وشيعة هذه لتصورت
أحدث ساسة مصر نحو البحر الأحمر بعد ثلاثة مدخله ديب وسياسياً واقتصادياً

أولاً - البعد الديني أصبح البحر الأحمر محرراً مقدساً إذ حرم المماليك على عمر
المسلمين دخوله حماية للحرمين الشريفي (إلا بأذن خاص من السلطات المصرية)
وأضاف المماليك إلى ألقاهم لقب "خادم الحرمين الشريفي" وتولى سلاطين المماليك
حماية قوافل الحجيج وترتب على هذه المسؤولية (ولأسباب اقتصادية تتعلق بمياه
جدة) صم إقليم الحجاز لدولة المماليك

• ثانياً أما العامل السياسي فينبع من صلات مصر مع دول البحر الأحمر، والبحار وساحل الغربي من البحر الأحمر حتى عيذاب كان جزءاً من منطقة مهابيك ثم ضم سلطان بيرس مملكة سواكن إلى دولة مهابيك خوفاً من أن تنافس عيذاب (ثم حدة بني آت) في إزعاجه الاقتصادية، ومن بين الأسباب التي حتمت ضم سواكن تحت إعباسه التي نهجها حاكمها الشريف علم الدين سعادتي، والتي تقضي بمصادرة ممتلكات من يموت من شجار.

وكانت بين الإمارات «الطراز الإسلامي» تسع أفرقة على ساحل بحري بحري لبحر الأحمر وشرقي أفريقيا تدعى «دولة منطقة مهابيك» بحسب القوة الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت وكان وضع الإمارات «الطراز الإسلامي» يتراوح بين انتماء لمملكة معينة ولا استقلال عنها. وقد شهدت المنطقة حروماً بسبب التنافس حول مركز شجرة به خلال فترتين أربع عشر وخمسين عشر.



من المصالح بين مملكة حبشه المسيحية ومصر فقد تزوجت من المصادفة
وبعد بغير لأن الكنيسة الحبشية كانت تابعة للكنيسة القبطية وكانت مصر تحت
الكنيسة الحبشية منذ بداية من وقت آخر وقد ترددت علاقات ابود هده بن نهديت
سب وقوف كل بلد مع لأقبة الدينية التي تتبع له وكان لأحباش بلوحو نقتل
مسمي لحشة وأخوين محرق لس من مصر كما كانوا يتآمرون مع نفوذ مصيبيه
تصوبق مصر ويعتقد بعض مؤرخين أن غارة بطريرك لوروجيان على الإسكندرية سنة
١٣٦٥ قد حدثت بالتدقيق مع الأحباش شيوخ حرباً من الخوارج وبعد احتلال
الماليك لجزيرة قبرص تولى حرم صلي تنوك أوروبا لبقاء خدمة مشتركة ضد مصر.
وكان وسيط في هذه الاتصالات لشحرور لدين على الشريري. ولكن اكتشاف
أمره سنة ١٤٢٩ أفسد المشروع.



العامل الاقتصادي اسم العهد مموكي بأحد الدولة نحو صيان سير
التجارة شرقية عبر سحر الأحمر وحكم قصة مصر عقب هدم المهابث بتطوير
مياه حدة وحمه صالحاً لاستغلال عدد كبير من السفن وبعد هذا انقرر على
حساب مياه عذب إذ مع المهابث سفن عديدة من التوقف فيه. على أثر نزاهة
هجمات لأعرب على فوافل المهابث لبحرية ولما تمت سيطرة لدولة على
مياه حدة وحجر عمت على تركيز كل حارة لبحر الأحمر منه. وصلت عليه
تخطيط إدارية ومالية دقيقة كانت تستهدف حثكارة التجارة الشرقية وقد أنصح
كانت تتحكم في مدخل لبحر الأحمر. ويقوم مياه عدن بدور هام في نقل
التجارة سمي المهابث لاستمرار مموكي وكسب ودهم وبلغت تلك التخطيات درونها
عندما احتكرت الدولة في عهد السلطان برسي ثجارة سحر الأحمر وصار سلطان
مصر الشحر الرئيسي لتجارة التوابل ووطن هذا النظام معمولاً به حتى نهاية دولة
المهابث فاحت الدولة أرباحاً طائلة من حثكارة التجارة ومن أضراب التي تحبسها.
وكان حار الإسكندرية يبعون سمعهم إلى المدن الإيطالية التي كانت تحتكر نقل
السفن الشرقية إلى أوروبا منذ القرن الثالث عشر. وقد أن هذه التجارة كانت تدر
أرباحاً طائلة فكان اسامس عليها شديداً بين حذر تلك المدن ونحوه بين حوة

والسديقه التي كانت تسيطر على الجزء الأوفر منها وراة هذه الوضع من حق حوة
فوصعت كل خبرتها وما جمعتها من حقائق عن الشرق أمام ملك البرتغال الذي كان
يسعى للوصول إلى الهند عبر البحر.



لم تنس أوروبا مسيحية ما خلق في من هزته انهيار صرد الصليبيين من لغام
اخرى ومنذ ذلك الحين كانت تسعى سعيًا حثيثًا لإيجاد طريق يتكف من تطويق
العالم الإسلامي من الجنوب والسيطرة على شحارة الشرقية مصدر رخائه وقوته
وكانت البرتغال (سبب قوما من مسرح الصراع بين المسلمين ومسيحيين في آسيا
ووقوعها تحت تأثير تعار حوة) أكثر الدول اهتمامًا بهذا الأمر وحاولت استغلال
فكرة الدوران حول القارة الإفريقية التي روج لها احيويون

وفي سنة ١٤٧١م أنخرت أول رحلة اكتشافية على الساحل الإفريقي بتوجه من
الأمير هنري ملّاح مهم بالكشوف الجغرافية. وكثير «جماعة مسيح العسكرية»
(The Governor of the Military Order of Christ) ومن بعد خمس وثلاثين
سنة منح انابا «جماعة المسيح العسكرية» السلطة الروحية وحرية الاتجار حتى بلاد
الهند وفي نفس الوقت أمدى البرتغاليون اهتمامًا كبيرًا بالأندلس المتدولة عن انفس
بوحا الذي يحكمه منطقة واسعة في ايبيريا لصين وعمياء (عن حد طهم) بقصد
اتحالف معه ضد المسلمين وإبراجح أن لقى بقصود هو ملك الحشة

وفي ١٤٨٨ أرسل يوحنا الثاني ملك البرتغال بعثة اكتشافية بقيادة بدرو دي
كوفلفهام للبحث عن مملكة الحبش وجمع معلومات عن المناطق المتحة للتواصل
والطرق المؤدية لها. وزار دي كوفلفهام ملك الحبشة لاستنطاقه في جهده مشترك وور
بعد ومن عاد إلى ساحل إفريقيا الشرقية واستغل ملك البرتغال معلومات الحبشة
لتي أرسلت هذه البعثة في استكشاف رحلات لحرية الموحدة هذه

ومع أن الشحارة الشرقية كانت ساءة جدًا في فناء هذه الرحلات إلا أن انحر
لأساسي كان ديبًا على بعض المؤرخين يصفون هذه الرحلات بأنها موجبة جديدة
في سبيل الحروب الصليبية. وقد أحمل غامبولين الثاني ملك البرتغال (١٤٩٥)

١٥٢١) هذه الدوافع عند وصفه لأسباب رحله فاسكو دي غاما الأول للهند بقوله إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى هند هو نشر لمسيحية والخصوب على ثروات الشرق.

وأخيراً فاسكو دي غاما في ٨ يوليو ١٤٩٧ على رأس أسطول مكون من أربع سفن. وكانت مهمته عمل مدهماً وقد علق على ساربنها علم رسم عليه صليب كبير وسار الأسطول عن طريق رأس الرجاء الصالح (الذي اكتشف قبل عشرة أعوام) حتى بلغ ساحل أفريقيا لشرقي وتمكن بمساعدة الملاح أحمد بن ماجة من الوصول إلى كاليبكوت أهم موانئ موزمبيق الساحل الغربي للهند. في ٢٠ مايو ١٤٩٨ ومع أن فاسكو دي غاما فشل في إقامة علاقات تجارية أو سياسية مع السامري وحاكم كاليبكوت بسبب موقف التجار المسلمين. إلا أن الرحلة قد حققت هدفها الرئيسي وهو اكتشاف الطريق البحري إلى الهند



وفي مستهل القرن السادس عشر (١٤٩٩ — ١٥٠٩م) توالى الرحلات البرتغالية في المحيط الهندي مارسة وجودها وسيطرتها في منطقة كوت لشعة التجارية فيها قاصراً على العرب، وكان البرتغاليون يعتمدون لإبعاد التجار العرب عن المراكز التجارية في الهند وشرق أفريقيا وتعطى سبيلهم وإغراقها أو مصادرها. وفي نحو سنة ١٥٠٢م عهد فاسكو دي غاما إلى أسطول برتغالي صغير بحراسة مدخل البحر الأحمر ومنها حصة من العربية ومنها من متاعه من متاعه في عجب هدمي إلا نصريح خاص به. وفي عهد سحر إلى نسب حكمه هوود ضد العرب والمسلمين، وعفضل نفوقها العسكري وممتلكاتها من مرودة المدفع والسائق ولني لم تعرف من قبل في تلك الأقسام، تخلف للبرتغاليين في زمن وجير حاكم لتجارة لشرقية والسيطرة على مصادرها في الهند وحتى لبرتغاليون بها حصة سبع أحيان حصة أصداغ تكلفه الرحلات التي كانوا يبعثونها. وتوحيو، ذلك كنه بإقامة أو حكومة ستميرية أوروبية في لشرق الأقصى لتأمين هذه المكاسب. ومنذ لبدء حرص لبرتغاليون على التثوير سلبين سيجي في المناطق المحيطة بمراكش شجاريه

وقد أدى تحوّل التجارة شرقاً إلى طريق رأس لرحاء لصالح إلى إصعاف دور البحر الأحمر في تلك التجارة. وتقلص الأهمية الاستراتيجية للبلاد الواقعة على، وأدى ذلك إلى توجيه صيرته قاصبه لاقتصاد البلاد لتلبية مستبعدة منها وخاصة مصر والبحر، وكان هذا الحدث فاتحة صفحة جديدة من الصراع بين العرب والقوى الاستعمارية الجديدة في المحيط الهندي.

بعد فترة الصعاب التي أصابت دول البحر الأحمر في التجارة شرقية بعد أن تحولت إلى طريق رأس لرحاء لصالح والذي كان فاتحة لصفحة جديدة من الصراع وفي غضون ثلاث أشهر أدت البحر ومصر إلى ما شديداً بالعرو لبرتغالي ولكن يمكنها البحرية كانت صنيعة والدول لا يمكن استولوا حرب بقوى على مواجهة الخطر البرتغالي وفي سنة ١٥٠٧ عامر السلطان عامر من عند وهدد لذي كان مشغولاً بمصر التي لداخلة. حملة واحدة مكونة من أربع عشرة سفينة وسفينة مقاتلة. بعضهم من الصلاب فتصوعين حرب البرتغالي في الهدوم يعرف شيء عن مصر ثلاث الحملة ومن قبلهم سعى إلى ثلاث موانئها البرتغاليين تحت الحصار لذي فرصه على سمن والتجارة العربية في المحيط الهندي. وثلية لاستبعاد ملك البحر به وكانت حظيه تقوى على تقوية حكمه مسيحي في البحر الأحمر وتخصيص موانئها في ذلك مباءة حدة، وخاصة بعد أن أعلن البرتغاليون عزمهم على مهاجمة حرمين شريفيين وتغريبهم وفي سنة ١٥٠٥ تحت السلطان قصوده لغوري بأسطول حربي بقيادة حسن الكردني فتبدد حصينات حدة في مباءة حدة. لرفع كفاءتها لدفعه ثم استولى على سواكن ورا بعض النواحي البحرية ثم عدل ثم خرج موانئها لبرتغاليين حيث اصعد به أمام ديو. وعكس معاونة بعض الإمارات الهندية من إبحار مصر حربي به طويلاً. بددت الهزيمة به في فبراير ١٥٠٩ فانسحب إلى البحر الأحمر. تاركاً المحيط الهندي تحت سيطرة البرتغاليين الذين زادت جرأتهم

وقبل لقائد البرتغالي لوكريك معركة في سواحل العربية فحصل حرية سقطورة، الواقعة عند مدخل البحر الأحمر. لإحكام بعلاقة مدم لبحر العربية. كما هاجم وصرع الساحل امتد من عدن حتى هرمز وفي سنة ١٥١٣ أرسل حملة إلى عدن اضطرت إلى الانسحاب بعد أن فشل أهلها استسلاماً رافعاً، ومنها توجه لوكريك

شمالاً نحو باب المندب واستوى على جزيرة كمران وأحكم تحريبه وكان هدفه الرئيسي ميناء جدة التي لم يتمكن من الوصول إليها بسبب ريح غائبة. فعد إلى كمران ومنها هاجم ميناء ربيع ورشقها بالمدافع وكرر صممه هذا في عدن. ومنها عاد إلى اهد ومع أن الرحلة لم تحقق نصرًا عسكريًا حاسمًا في البحر الأحمر إلا أن توغل اليوكريك في تلك المنطقة. ساعد في التعرف على طبيعتها ورسم خطة عمل فيها لسد مضايق البحر. واستيطرة على عدن وفي عهد اليوكريك تم الانتصاف بين حبشة والبرتغال. بقصد تسبق الجهود ضد المسلمين، وبخاصة مهابيث الذين يمدون يد العون للإمبراطورية الإسلامية في منطقة القرن. وتوحدت هذه الاتصالات بإرسال أول سفارة دبلوماسية برتغالية إلى بلاط مملكة الحبشة سنة ١٥٢٠ وكانت سريتهجية مملكة الحبشة تهدف إلى استعصاء لدول الأوربية مثل برنار وفرنسا ونسب لاحتلال أحد المواقع الهامة في البحر الأحمر مثل ربيع ومصوع وسواكن. ثم الانقصاص من على مدن الإسلامية الهامة. أما البرتغاليون فكانوا يرمون إلى اتحاد الحبشة قاعدة عسكرية. واستغلال ثرواتها، ثم تحويل لأحاش من لهدف الأرثوذكسي إلى هدف الكاثوليكي. ولم تكشف هذه النوايا وظهر لحلف وعمل لأحاش على التعرف من رعاياهم مع البرتغاليين والسعي لطردهم وبخاصة بعد أن صهر الأتراك لعثمانيين كقوة إسلامية كبرى في بلاد العربية والبحر الأحمر هدف لأحاش أنفسهم وتمكنوا من طرد البرتغاليين في أوائل القرن السابع عشر.

ولم تكرر الاعتداءات البرتغالية على البحر الأحمر استبعد قصوه لعوري. الذي كان يعد اعتداء مواجئة أخرى مع البرتغاليين في اهد. فالسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ — ١٥١٢) يطلب منه مدد بالأحشاش والعتد فمدده بايزيد بفتح إليه هدية مصافاً إليها نحو ألفين من البحارة بقيادة سلطان الريس أو سلطان الرومي للمساعدة في تشييد السفن والمشاركة في حملة الهند، وأبحرت الحملة المكونة من عشرين سفينة وستة آلاف جندي بقيادة سلطان الريس وعدد وصولها إلى جدة نون بقيادة نائب السلطان حسين الكردي وقرر المهابيث قبل مواجئة البرتغاليين في هبط اهدى بحكمه تنحسبت لدفاعه على السواحل البحرية وحاصره عدن أولاً. وشاء قاعدة حرية تحكمه في إغلاق البحر أمام البرتغاليين ثانياً. وعدد وصول الأسطول إلى جزيرة كمران بقصد تحصين صلب المهابيث من سطون عمر تقديم ما وعد به من

عون على هنة مال ومؤمن وتزدد سلطان في لاستحانة بدت احل حوق من أن يكون مدينة لسيطرة مموكية جديدة على اليمن وأمر ولاندي في سجن بعد لاستحانة نظمت الملك ورث الميث بن اسحق بجي وأحد ما يختصون إليه من مؤن وأختب عود ووجد الميث بعض تشجيع وألغى من العاصر لمؤنة لسلطان عمر في مطقه نهامة وساءت لعلاقات بين الميث ولسطان وتردت إلى حرب سافرة احتل حسن لكردي على أرض بعض مدن النهامية مثل رساء وبعد تعيين أمير برساتي حاكم على مدينة بيد وفائد بجيوش مموكية في نهامة. تالعت الحملة سيرها دستوت على ربيع. ثم بدت في مهاجمة عدن حتى سقطت في الدفاع عن نفسها. وردت الميث على مربي فاصبرو للاسحاب في ١٩ أغسطس ١٥١٦ وأدى فشل الميث في احتلال عدن إلى تاجيل حملة الهند وحدثوا سو حل نهامة اليمن حقد دفاع أو هم. وحدثوا حدة مركز دفاعهم الثاني وم بطل العهد حسن لكردي. د سعت دولة الميث ثم جحافل العثمانيين سنة ١٥١٧ لما الميث لدين بقوا في ربيد حت حدة برساتي مستمر في حربه ضد اهاهريين حتى فشلوا لسلطان عمر في ١٥ مايو ١٥١٧. وحدثوا صعدة وساءت إلى اوجود مستقل لدولة اليمن وسارع الميث إلى الاعتراف بالدولة العثمانية. وهكذا فعل شريف مكة.

وبدحو العثمانيين مقهرة في ١٣ أبريل ١٥١٧. صارت صفحة عهد رائع من أسس اليهود لإسلامه. كلفت هم مساعي الميث فاصبر على معون ولصبر. وبكها أحقق في رد عادية لرتعدلي. وورث العثمانيون دولة الميث ونسب مياصه في مواجعه لحضر لرتعدلي والدفاع عن بحر الأحمر. وحياة الحرمين الشريفين وسبب شتاهه حروب اسحق ومد لغود حثي في فارس والعراق وبنكست السلطان سليم القوي (١٥٢٠ - ١٥٦٦) محضر لرتعدلي نو. رعه نوي هجرة وم بقه العثمانيون عهد حربي صده حتى عام ١٥٣٨

وفي هذه الأثناء وصل لرتعدليون حملاتهم حقيق مقاصدهم في بحر الأحمر. في فبراير ١٥١٧ خرج نائب دست لرتعدلي في حدة. ونو سرير على رأس حملة فاصدا حدة وسارت حملة دون أن تتعرض عدل أي أمتهه مؤن للارمه

وبعض المرشدين من السحرة الجنيين. ليحسوها بحصر الشعب مرحابة. وبعد وصوله إلى حدة قشت في حتلان سب ساعه انتحسرت اني أعدها للمليث كمي أن انتقل السلطة للعثمانيين جعلهم يعطون تاريخي وتغيبه منها برس وتكن من ترمسية رتغاله وكرر يرتد يوب صبيهم مرة ثالثة عام ١٥٢٠. إلا أن الرياح ضدهم عدا، وحدث نفس الحصة في برس وبه دسوماسيه في الحصة كمي بوهب من قس. وفي سنة ١٥٢٥ تعرضت عدن لقصص بالمدفع وحصار برغاني وفي فبراير ١٥٣٨ نوح يرتدون بحولانهم تعرض معده على عدن وبذلك ضحبت عدن حرة من أهلاك البرتغال وانتمت عدن بدفع حرية سوية. مع عطاء مسها حرية الملاحة شرط عده نوحها بر حدة ولكن معاهدة مده صويلا. بد بدل العدويون محاولات حدة للحلاص من لسيطرة البرتغالية واستحدو بالسلطان سيبان القانوني. معلنين الشول في طاعته.

وفي عام ١٥٣٧ بد ولي مصر شوحه من لسلطان عثماني في إعداد السفن للارمة في السويس لحمة حرية لإحصاع جس وعجارة يرتديين وتصاعد اهتمام لسلطان سيبان بقانوني بد. لأمر بعد فتح لعثمانيين بحرق (١٥٣٤) وامتد عودهم سوحل الخليج بحرق شتائية اعلاوه يعود لبرتغالي في جنوب الخليج ويروي أن لسلطان نفع أن يرتد على كيو على صفة بالمرس وبه قد اندوهم بعض معونات حربية ولم ينف الامسحدت بداهن لعثماني على العدبيين وفي سنة ١٥٣٧ طلب سلطان كحرت حدي دعما عسكريا حتى يتمكن من التصود في وحه البرتغالي وانحرت حمة من السويس في يونيو ١٥٣٨ وكان عوامها ثمانين سعية وعشرين ألف مقاتل بقيادة سلمان باشا حده الذي كات حربه بالبحر صلبة، وأخرى سبون باشا بعض الاتصال مع مرة حتى قبل بده الحمة مسيرته مما سهل مهمته وتمكن من الاستيلاء على مده عذب. بعد أن عذر حاكمها عامر من دود اندي أحسن استقباله وقد ماء هدا الحس امشئ سمعه لعثمانيين في تلك المنطقة. وتابعت الحمة بحسب إلى هدا حث حاصرت قلعة ديو بالنعون مع جيش كحرت. وبعد شهر رف سبون باشا الحصار وأطلق نحو لسواحل بحرية (الكاب احصاعها بسيرة العثمانية) ومما له حصاع لطفه مستد من شحر في جنوب حتى حيران في الشول وفي ريد ثم نقل السلطة من تراثيت إلى موصم عثمانيين ولكنه

لم ينجح في الاستلاء على المناطق الداخلية التي بقيت تحت حكم الريدبيين وطلبت
تحتلها لخصوة بدوية الغنابة للسيطرة عليها عشرات السنوات

وعاد سنيان ناش في مصر دون أن تحقق حتمه هدفها في اهد، ولكن في نفس
سماها لسيطرة على عدن وريد والسواحل اليمنية وعلى أثر هذه هزيمة حراً الريداليون
بريداب حملة توغلت حتى مشارف السويس سنة ١٥٤١ ولكنهم حاول ضرب
الأسطول العثماني الموجود في البحر كلفت شحوب بعض السفن في البحر والقصور،
وحدثت مراكب وذهبت ثم عادت في اليوم الحشبة، وترب على هذين
الحدثين مثل حملة في عدن والتحق لردع في البحر الأحمر، أن هجر العثمانيون
سياسية الحكومة وكنعوا بالدفع عن البحر الأحمر وإغلاقه أمام السفن البرتغالية
على حرموه على سائر السفن لأورنة خوف من أن تسبب البحر الأحمر تحساره
الغريو الرئيسي للأماكن المقدسة، وتمكن عثمانيون من تحقيق هدفه فهدف بدعم
قواعدهم البحرية في البحر وإحكام قبضته لإدريه عليه ومد نفوذهم إلى السواحل
الحشبة.

وفي نفس قام العثمانيون تحضرت بدرية وحرية لدعم سنيته في الأماكن التي
حصنت ضد على السواحل. وبدأوا في مد نفوذهم على الأقاليم الداخلية. ومع أن
مخبروش لعمامة استوت على أغلب تلك الأقاليم وتمكن إدميرال من توحيد البحر
تحت السيطرة العثمانية في سنة ١٥٥٥ م إلا أن المقاومة اليمنية كانت تعطل رؤسها من
وقت لآخر. وتجمع مقاومة حوالة لبيع الإمامية الريدية وتامعت كفاحها حتى ظهرت
نشطة عثمانية وأرست بدولة عثمانية حملة كبيرة بقيادة مسان باشا لاسترداد
السيطرة العثمانية على البحر سنة ١٥٦٩ وتصبح أهمية هذه الحملة من التوجه الذي
أصدره سلطان سليم الثاني مسان باشا، سردده بمسكة البحر وإن كان ذلك مما
تعبى عسا لأهم ميرات أيد مقدس، لكن حين قصدها من ذلك إنما هو حفظ نهر
عدن صوباً للبحرين الشريفة على (من) الكدر ملاعب، وتمكن جيش العثماني
فرض السيطرة العثمانية مرة ثانية إلا أن روح المقاومة لم تضعف بل زادت حدة
فكثرت ثورات قيده لأنه يريد من حتى عجز في حصار لعمانيين عن إخلاء عن
البحر سنة ١٦٣٥ وهكذا وقف العرب في وجه الأتراك، وكان نفس أول مد عربي
ينسلخ من الحكم التركي.

في نهاية القرن السادس عشر بدأ الوهن يدب في أوصال الامبراطوريتين العثمانية والبرتغالية لأسباب كثيرة. يكفي أن نذكر أن ضعف ساحل الدولتين كان أهم معززه. ويذكر أن بركات البرتغاليين، رغم عجزهم شبه الكامل في السيطرة على الملاحة في المحيط الهندي، فإنهم لم ينجحوا نفس القدر في السيطرة على التجارة الشرقية. إذ من حزم سير من هذه التجارة حد طريقه إلى البلاد العربية وحقيقة الأمر أن التجارة محببة كانت تسير على خطها العادي، إلا أن ما حققه البرتغاليون من مكاسب نتيجة حنكهم هذه التجارة دفع حيزهم من لدول لأوربية يجرى حطهم في هذا عصر.

وكان أول من وصل إلى مياه المحيط الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح هم الهولنديون الذين كسروا ديث الاحتكار في سنة ١٥٩٥ وسعوا لأحضر في سنة ١٦٠٣ وكان دخول هاتين الدولتين في المحيط الهندي بداية جديدة لحادثة للاستثمار التجارة الشرق وكان الصدام مسلح من سمات هذه المنافسة. ولم يكد يتوسط القرن السابع عشر حتى كانت البرتغال قد فقدت سيطرتها على المحيط الهندي وسوجبه وم يتق لها ما سوى بقعة جيوب على ساحل إفريقيا واهدي.

ومد بداية القرن السابع عشر بدأت هذه القوى الجديدة تطرق لمواحل البحر الأحمر بقصد إقامة علاقات تجارية مع مواش والاستفادة منه كطريق بحري هام وكانت علاقات العثمانيين بالمقامرين المحد يشوب كثير من الخسر في اسمه صمخوا للسفن الأحسية بالتعامل مع مياه البحار الواقعة على ساحل الشرقي. وبكيفية صدورها عن التوغل في دخل البحر الأحمر. وصمخوا للسفن العربة بنقل سلع التي جلبها تلك سفن لمواشي، لتبائية وبيع هذه الإحراء من سياسة العثمانيين. كحماة لمحرمين الشرقيين في عهده عن البحر الأحمر كحمية إسلامية، وليس الضعف الذي أصاب الأسطول العثماني كان سبب في بصرهم عن تعهد هذه الإحراء.

وكان البرتغاليون أول من سعى لإقامة علاقات تجارية مع حبره العربية. وفي عام ١٦٠٩ صب نكبات لاسكندر «شارلي» الصباح في التجارة في ميناء عي وقد صمخ له جيب وحره جيب آخر. وأرسل شركة ضد الشرقية لبريطانية في لعاء اللدلي عثة تجارية برئاسة «هيري ميلتون» نفس لعرص قرار عدد ولا ثم عي وقوفت

هذه السنة بعداء، وستنكار شديدين من سلطات الغنيمة التي أدلت تعجبا من حرة
 أولئك «لصبي» الذين يسعون للأقرب من الأماكن المقدسة في الحرية حرية
 وبعد محاولات متعددة من الأخير صبح هو في عام ١٦١٨ مالتحرة في حرة تامة في
 مح. والمحقق لوقعة حوبا، وذلك صارت بريدها لدولة الأوربة الموحيدة التي
 منحت هذا الامتياز.



وبلح دق الغنيمة لأغداد هو الآخر تأكدهم من حرة حده لشخص انقام
 بينهم وبين لبرتلين، ورعهم في شسط التجارة لتحسين وضعهم لاقصادي
 ولا شت أن قيام دولة اريدة بعد صرد الغنيمة سنة ١٦٣٥. قد دق الغنيمة
 لاقتحام مجال التجارة لشرقية وشجعهم على تداول مع الأوربيين. وفي هذه الفترة
 انتشرت زراعة البن وكثير لأفان على شرفته حتى صار من أهم الصادرات الغنية
 وكان بن سعة رنة في شرق لأوسط وأوربا وأمريكا، ومن ثم كان يُصدّر عن
 طريق البحر الأحمر وحرير رأس لرجاء المصالح في وقت واحد، وكان تتخاره ابن
 أثر كبير في إنعاش طريق البحر الأحمر التجاري.

ووجدت شركة هذه الشرقية البريدية، التي كانت تحتكر لتجارة شرقية محالاً
 صبا في البحر، فأشنت عدداً من البوكالات التجارية بالحدود مع تجار الحدود الذين
 اشتركوا في بلاد وحققوا نجاحاً بعد أن عاد هولنديون الذين في سنة ١٧٦٢
 وصار لإمبراطور على حارة لن وعيها من اسع الغنية، وحرصت شركة لهذا
 الشرقية على مساهمة لأغمة لبردين بعد بناء حكمه غنيمة ووجدت هم حير صير
 شهيل لتأجير تجاري وكان اود بسود هذه الغنائم مع تحسرات سلطان
 لغنيمة الذي راعه تريد شدة لأوربي تجاري في ايده مهمة

ولاشت أن تصدير حرة كبير من بن عن صير رأس لرجاء المصالح قد صر
 مدخل دولة غنيمة في مصر فحت استيطان غنيمة صغيراً بن بناء ابن سنة
 ١٧١٢ تحده من الاستمر. في لتداعى تجاري ماض مع دول لأوربة وبرجوه
 عصر تصدير ابن الغنيمة بن مصر فقط عن طريق البحر الأحمر، ورفض الإمام خفيق
 تلك لرعة التي تصير بوضع بلاده لاقصادي ومشر في معاملاته التجارية مع
 الأوربيين.

وفي الوقت الذي كانت السفن الإنجليزية تطرق أبواب اليمن تسلسل الهولنديون بقصد إقامة وكالات تجارية في اليمن، وكانت محاولاتهم الأولى سنة ١٦١٤ عندما وصل «فان دي بروك» إلى عدن مسلحاً بتصريح من الباب العالي يسمح له بالتجارة في جميع أنحاء الدولة العثمانية. ومع أنه قد رحب به في أول الأمر إلا أن معارضة التجار المقيمين له، خشية منافسته لهم، أجبرته على الرحيل. وباتت محاولته في محال بالفشل بسبب تخوف الحاكم من تسريحهم إلى المدن المقدسة وإزاء هذه المعارضة ركز الهولنديون نشاطهم التجاري على الساحل الجنوبي، ولم يحاولوا التوغل في البحر الأحمر لإقامة مراكز تجارية، وكانت تجارة البن تمثل جزءاً هاماً في تعاملهم التجاري مع اليمن، فلما نجحوا في نقل زراعة البن إلى جزر الهند الشرقية، وصعب عليهم توسيع دائرة أعمالهم التجارية في اليمن غادروه عام ١٧٦٢.

وفي عام ١٧٠٩ نجحت بعثة فرنسية في عقد معاهدة تجارية مع حاكم محاسن لهم بمقتضاها بفتح وكالة تجارية، ورغم اعتراض السلطات العثمانية على تزايد النفوذ الأوربي الذي أشرنا إليه، فإن النشاط الفرنسي زاد اتساعاً وجرأة. ففي سنة ١٧٣٨ تمكنت الشركة الفرنسية بعد أن ضربت ميناء محاسن، من اقتناع حاكمها بتخفيض العوائد الجمركية المفروضة عليها من ٣٪ إلى اثنين ونصف بالمئة.

وخلال قرن من انحصار النفوذ العثماني في اليمن تمكنت الشركات الأوربية من تدعيم وجودها التجاري عن طريق الوكالات المنتشرة في سواحل البحر الأحمر الجنوبية، ثم اندفعت نحو الجزء الشمالي لتحقيق أهدافها التجارية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وشهدت هذه الفترة سباقاً شديداً بين الإنجليز والفرنسيين من أجل الانفراد بالوكالات التجارية. وكان التنافس على أشده في مصر التي تحكم في الجزء الشمالي من البحر الأحمر، فاهتمت شركة الهند الشرقية بالسوق المصرية التي كان الفرنسيون يشتمعون فيها بامتيازات تجارية. ففي سنة ١٦٩٧ عينت إنجلترا قنصلاً لها في الاسكندرية ومنحهم السلطان مصطفى الثاني امتيازات مماثلة للامتيازات الفرنسية، وازداد الاهتمام البريطاني بمصر وبطريق البحر الأحمر بعد صلح باريس سنة ١٧٦٣ في محاولة للربط بين مصر والممتلكات البريطانية في الهند. ومما مهد السيل لهذا التطور أن الرسوم الجمركية كانت تمثل جزءاً هاماً من دخل الدولة. وحقيقة الأمر أن حكومات المناطق المطلة على البحر الأحمر مثل الأمانة في اليمن والاشراف في مكة

«والماليك» في مصر كانوا يسعون لتشجيع التعامل التجاري مع الأوروبيين حتى يزداد دخلهم من الضرائب التي تجبى من التجار المترددين على موانئها.

وفي مصر عقد محمد بك أبو الذهب اتفاقية مع الانجليز لتنشيط التجارة بين مصر والهند وأثار هذا التصرف المستقل من حكام مصر حفيظة السلطات العثمانية، خشية من تزايد النفوذ الأوربي. وحذر السلطان العثماني القائم على أمر مصر من عواقب القادي في مثل ذلك الاجراء، وذكرهم بما حدث في الهند التي رحبت بالتجار الانجليز ففقدت استقلالها وصارت مستعمرة بريطانية.

ولكن هذه التحذيرات لم تكن لتؤثر على «ممالك» مصر بسبب العائد الكبير الذي يجنيه من تلك التجارة. وفي السبعينات من القرن الثامن عشر استطاعت السفن البريطانية أن تصل السويس والقصر والطور وفي نفس الفترة توسعت دائرة النشاط التجاري الفرنسي فعمد الفرنسيون اتفاقية مع مراد بك سنة ١٧٨٥ تتيح للسفن الفرنسية التردد على ميناء السويس واكتمل لها بذلك حق الملاحة في البحر الأحمر والانتجار في موانئه.

وكان التنافس التجاري حول البحر الأحمر، بين إنجلترا وفرنسا، يجني وراءه صراعاً سياسياً حاداً. وكان كل من الدولتين يعرف قيمة البحر الأحمر في الوصول إلى الشرق الأقصى وكان ينظر إلى تحركات الطرف الآخر بعذر شديد. وقد أبانت حملة نابليون بوناپرت على مصر في مايو ١٧٩٨ إدراك الفرنسيين لأهمية البحر الأحمر. وباحتلالهم لمصر دخل البحر الأحمر في مرحلة تاريخية حديثة.

وكانت إنجلترا تخشى أن تستغل فرنسا هذا الطريق المائي القصير للوثوب للهند ذرة التاج البريطاني.

ولم يقف الانجليز مكتوفي الأيدي بل رتبوا أمرهم بقفل منافذ البحر الأحمر أمام الفرنسيين فاحتلوا جزيرة بريم عند بوغاز باب المندب في سنة ١٧٩٩ ودعموا ذلك الاحتلال بعقد عدد من المعاهدات الصداقة مع سلطان الحج ومشايخ القبائل في جنوب شبه الجزيرة العربية وختموا هذا التدخل باحتلال عدن سنة ١٨٣٩. وظلت إنجلترا تسعى جاهدة لإبعاد أي منافس لها في البحر الأحمر الذي أضحى منذ بداية القرن التاسع عشر وإدخال السفن البخارية أقصر طريق يلائم الثورة الاقتصادية التي

اجتاحت العالم، كما أن شدة الصراع السياسي حول المستعمرات الجديدة كان يستلزم اتخاذ قرارات سريعة بالتشاور مع العواصم الأوربية. وعليه لم يعد طريق جبل طارق — رأس الرجاء الصالح البحري، يواكب كل هذه التطورات.

واسترد البحر الأحمر أهميته، كما استردت البلاد الواقعة عليه أهميتها الاستراتيجية مما جعل الدول المتنافسة تهدف لعقد أحلاف معها تسعى للسيطرة على منفذه في عدن والجنوب العربي والقرن الأفريقي ومصر. وكان فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ أحد مظاهر هذا الصراع بين الدول الأوربية الاستعمارية التي صعدت معركتها من مجرد تكثيف نشاطها التجاري إلى السيطرة على مصادر المواد الخام بل والبلاد ذاتها.

يتضح من هذه الملاحظات أن الصراع حول البحر الأحمر ظاهرة قديمة تتجدد عبر العصور. ففي البدء كانت بين الدول المغلقة عليه، ثم دخل الرومان وتبعهم الفرس، واستغل هؤلاء الدول المحلية لتنفيذ مخططاتها، وهكذا فعل غيرهم في عصور أخرى.

ثم آل الأمر إلى القوى الإسلامية، التي جعلت منه بحيرة إسلامية دهرأ طويلاً ولكن سرعان ما نافسهم عليه القوى الصليبية، وفتحت البرتغال عهداً جديداً من الصراع كانت السفن البخارية والأسلحة النارية دعائم الأولى. ووقف العثمانيون في وجه الخطر البرتغالي وحرّموا ارتياد البحر الأحمر على غير المسلمين. ولكن دولاً جديدة دخلت حلبة الصراع. وبدأ فجر جديد من الصراع كان امتداداً لمحاولات أوربا القديمة في السيطرة على البحر الأحمر كما كان مسرحاً للتنافس بين بعض الدول الأوربية نفسها مثل إنجلترا وفرنسا.

وبافتتاح قناة السويس تمكنت أوروبا من إحكام قبضتها على منافذها. واستطاعت أوروبا خلال القرنين الماضيين أن تسيطر تفوذها العسكري والسياسي والاقتصادي والثقفي والثقافي على أجزاء كبيرة من المعمورة كان البحر الأحمر واحداً منها. وصارت حضارة الغرب هي الحضارة الطاغية في عالم اليوم، وأخذ الغرب يسعى ليطغى سلطانه بكل الوسائل سلمية كانت أم عسكرية. وكانت السيطرة على مصادر الطاقة آخر الوسائل لتحقيق هذا الهدف، وما الحديث عن «أمن البحر الأحمر» إلا رد الفعل العربي الإسلامي، لزعزعة هذا الكابوس.

- ١ — أبو شامة: عبد الرحمن بن اسماعيل الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت (بدون تاريخ) ج ٢.
- ٢ — أحمد رمضان: مصر والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
- ٣ — الأندلسي محمد بن أحمد: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نابولي، ١٩٧٠.
- ٤ — ابن عربي يري، أبو الحسن يوسف: التجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٢٩.
- ٥ — ابن إياس: بدائع الزهور من وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ج ٤، ١٩٦٠.
- ٦ — محمد زطوفل عبد ربه: البرتغاليون والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس القاهرة.
- ٧ — السيد مصطفى سالم: القنص العثماني الأول للبنين، ١٥٣٨ — ١٦٣٥، القاهرة، ١٩٧٤.
- ٨ — سيد أحمد علي الناصري: الرومان والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر في التاريخ جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
- ٩ — عاشور، سعيد عبد الفتاح: بعض أغواء جديدة على العلاقات بين مصر والحشة في المصور الوسطى، مجلة التاريخية المصرية المجلد ١٤ (١٩٦٨) — ١ — ٤٣.
- ١٠ — عبد الرحيم عبد الرحمن: النشاط والتجارة في البحر الأحمر في العصر العثماني ١٥١٧ — ١٧٩٨، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس ١٩٧٩.
- ١١ — فاروق عثمان أباطة: التنافس البريطاني الأمريكي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
- ١٢ — فائق بكر الصوالف: أهمية شرجدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري (١٤م). ومصطفى محمد رمضان: ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
- ١٣ — القزويني: عجائب المخلوقات.
- ١٤ — لاسم عبد لاسم: علاقات مصر بعالم البحر الأحمر في عصر سلاطين المماليك، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٩.
- ١٥ — محمد أحمد أنيس: الدولة العثمانية في الشرق العربي، القاهرة (بدون تاريخ).
- ١٦ — محمد أمين صالح: تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الحراكة: ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
- ١٧ — السعودي علي بن أحمد: مروج الذهب ج ٢، باريس ١٨١.
- ١٨ — المقرئ، علي بن أحمد: الإقام عا بارض الحشة من ملوك الإسلام، القاهرة ١٨٨٥.
- ١٩ — (٢) كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ج ٤، القاهرة، ١٩٣٧.